حتى لا تحرق أجنحتي

لطيفة قرناوط

إبداع
للنشر الالكتروني

BESAN:BESO:

حتى لا تحرق اجنحتي

إبداع

لطيفة قرناوط

تصميم

الغلاف: Besan Beso

الداخلي : Samar Abdelfatah

تعبئة ورابط إليكتروني : Dina Y Elshaarawi

فريق عمل

إبداع

للنشر الإلكتروني

(مستوحاة من قصّة وقضيّة حقيقية)

تقدّمت إيمان بخطىً ثابتة إلى منصّة التكريم، صعدت الدرج بأناقة ومشت حيث قُدِّم لها ذِرعٌ تكريمي تلقّته مبتسمة، ثم توجّهت إلى حيث الميكروفون لتلقي كلمتها، جاء صوتها واضحا، رقيقا لكنه قوي يوحي بثقة صاحبته:

ـ مساء الخير، أريد بدايةً أن أقصّ عليكم قصة المشوار الذي جعلني اليوم أقف على هذه المنصة، لأن تكريمي اليوم لم يأتِ من سراب، ولكن جاء من معاناة وسقوط، ووقوف، رغم أن الطريق كان طريقي أنا، لكن القصّة لم تكن قصّتي وحدي.

صمتت إيمان تسترجع ذكرياتها، وكأنها شردت في ماضٍ بعيد ترى شريطه يمرّ أمام عينيها، بينما راحت تقصُّ أحداثه على الحاضرين:

ـ كنتُ في الثالثة عشر من العمر، أتذكّر ذلك اليوم جيدا عندما سمعت جلبة في صالة بيتنا، خرجت مسرعة لأرى ما الذي يحدث، فإذا به شقيقي يحاول التهجم على غرفة أختي وكسر بابها، بينما والدتي تقف بينه وبين الباب تحاول منعه والتوسل إليه أن يترك شقيقتي في سلام.

كان أخي يصرخ بصوت مرعب من شدة الغضب الذي غلفه:

(سأقتلها، سأمحو عارها وأغسل شرفنا)

فتجيبه أمي متوسلة:

(أرجوك يا ولدي من أجلي أنا لا تضيّع حياتك من أجلها)

بعد جهد جهيد وتوسلات وبكاء من والدتي، خرج أخي من المنزل متذمرا وهو يتوعد شقيقتي أن الأمر لم ينتهِ بعد.

جلست والدتي في الصالة تبكي وتندب حظّها موجهة كلامها بصوت عالٍ لتسمعه ابنتها المختفية في غرفتها:

(ما الّذي قصّرت فيه معك حتى تكافئيني هكذا؟ ما الّذي فعلته لكِ حتى تشمتي بي الجيران والعائلة فيقولون ابنة زينب "خاطئة" سلّمت نفسها لرجل في الشارع، فعل بها ما أراد ورفض حتى أن يسترها ويرتبط بها، ما الّذي فعله لك والدك وشقيقك حتى تمرّغي رأسيهما في التراب...)

لم أكن أستوعب الكثير مما كانت تقوله والدتي، لكن في الأيام التي تلت ومع توتر الأجواء في بيتنا، بدأت أفهم وأستوعب تلك الكارثة التي حلّت على عائلتنا، وعندما كبرتُ فهمت كل شيء لأنني اطلعت على كل التفاصيل.

أخذت إيمان شهيقا عميقا كأنها تستدعي قوتها لإنهاء قصتها، ثم أردفت:

ـ لقد تعرّفت شقيقتي على شاب ادعى أنه يحبها ويريد الارتباط بها عندما تتحسن ظروفه، طلب منها الصبر ولكنه ألحَّ على مقابلتها مرة أو مرتين في الأسبوع، ولأنها كانت تخشى والدي وأخي كانت تضطر لمقابلته بعيدا جدا عن الأماكن التي يمكن أن يراها أو يقابلها فيها شخص يعرفها، كان حبيبها يأخذها إلى الغابة والحدائق العامة أين

يمكنه الاختباء بها وسط الأشجار والأعشاب، حتى لا يراهما أحد، ولأنها كانت مغيّبة بكلمات غزله وعشقه، فقد وثقت به وتركته يأخذها أين شاء، ظنّا منها أن رجلا يحبها لن يؤذيها، ولكن ما كانت تجهله هو أن هذا الرجل لم يكن يحبها بل كان يدّعي ذلك، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي انقلبت فيه دنياها ودنيانا رأسا على عقب، فقد تمادى معها في ما كان يأخذه منها، ولأن غريزته غلبته فقد حاول الوصول بمتعته إلى منتهاها، رفضت شقيقتي وقاومته، لكنه كان مغيّبا تحركه غريزته أو ربما كان يخطط منذ البداية للوصول معها إلى تلك النقطة بالذات.

غصّت الكلمات في حلق إيمان وهي تتذكّر تلك اللحظات الرهيبة في حياتها وحياة عائلتها، استجمعت قواها وهي تأخذ نفسا عميقا لتكمل:

ـ واعتدى عليها،هتك عرضها واغتصبها رغم مقاومتها الشديدة، وبعدما انتهى الأمر حاول تهدئتها بأن وعدها بأنه سيتزوجها، وأن ما حدث لن يؤثر في علاقتهما، في الأيام التي تلت كان يتهرب منها ولا يرد على مكالماتها الهاتفية، وعندما ألحّت عاد إليها يستغلها في كل مرة ويهددها أنها إن لم تستسلم له سيتركها ويتزوج بغيرها.

لا أعلم هل كانت شقيقتي مازالت على حبها له آنذاك، بعد أن انكشفت حقيقته أمامها، ولا أعتقد ذلك، ولكن الأكيد أنها أدركت حجم الكارثة التي أوقعت نفسها فيها، كانت قد أدركت أنها وقعت في عرين الأسد وأن الليث وإن كانت أسنانه ظاهرة فهو لا يبتسم، إنما كان يكشِّر عن أنيابه ترقبا للحظة التهامها، أدركت شقيقتي أنها خاسرة

في كل الأحوال وما عليها إلا أن تقلّل الخسائر على الأقل بجعله يفي بوعده بالزواج منها.

ووصل به الأمر بعد ذلك، إلى طلب النقود منها فبدأت تعطيه حُليّها يبيعها ويأخذ ثمنها، لكنه لم يتوقف عند هذا الحد وراح يطلب مبالغ كبيرة، ولأنها لم تعد تملك من المجوهرات شيئا تسلّمه له، طلب منها أن تحضر له من حُليّ والدتها، فأخبرته أن والدتها تضع مجوهراتها في حقيبة صغيرة مغلقة بأرقام سرية لا يعرفها أحد سواها، فطلب منها إحضار الحقيبة، رفضت وبكت وتوسّلت، لكنه عاد لتهديدها بأنه سيفضح أمرها ويرسل صورهما إلى شقيقها ووالدها مع رسالة من مجهول تخبرهما بأنها لم تعد عذراء، خافت هي وارتعبت، قضت ليالي طويلة تفكر في حل لهذه المشكلة، غير قادرة على الوصول لما ينقذها

من هذا الحيوان الذي ظنّت يوما أنه رجل عاشق ووثقت به.

صمتت إيمان تغالب اختناق الكلمات في حلقها، ازدردت ريقها وواصلت حديثها:

ـ في النهاية وجدت نفسها مغلوب على أمرها، فأخذت الحقيبة خُفية وسلّمتها له، لكن ما لم تحسب شقيقتي حسابه أنه بعد مدة وجيزة احتاجت والدتي مجوهراتها ولم تجد حقيبتها، قامت عاصفة في المنزل بحثا عن الحقيبة وتمّ إبلاغ الشرطة، كان الضغط رهيبا في بيتنا وحالة أختي تزداد سوءًا يوما بعد يوم ووالدتي تسألها عن سبب حالتها تلك، تمّ أخذها إلى الطبيب وعرضها على الرقاة دون جدوى، كانت شقيقتي تعاني في صمت، خائفة من اكتشاف عائلتها لأمرها،

وخائفة من رجل وثقت به وخان ثقتها، بين المطرقة والسندان كانت تموت في صمت قاتل، تمنّت لو أنها تستطيع أن تصارح والدتي بما حدث، ولكنها كانت تدرك أن ذلك سيكون فيه حتفها، والدي وشقيقي لم يكونا ليتفهما موقفها، ولم يكونا سيسامحانها أبدا.

شكّت الشرطة في أمرها مع حالتها تلك، وبعد الضغط عليها اعترفت أنها سلّمت الحقيبة لشخص كان يهددها بصورهما معا وأخفت أنه اغتصبها خوفا من شقيقي، ووالدي، تمّ إلقاء القبض على ذلك الشخص، واعترف مباشرة أنه على علاقة بها وأنها هي من سلّمته نفسها راضية وأنه لم يرغمها على شيء، أنكّر أنه كان يهددها وصرّح أنها هي من قدمت له الحقيبة بمحض إرادتها ليبيع ما فيها حتى يتزوجا، وأنها أخبرته أن ما

فيها ملك لها هي وأنه لم يكن يعرف أنها سرقتها من والدتها، تمّ بعدها استدعاء والدي وإعلامه بالجديد، وعرضت شقيقتي على طبيبة نسائية أكدت أنها ليست عذراء، وكانت الطامة التي سقطت على رأس والدي، وعائلتي كلها.

أغمضت إيمان عينيها تخفي تأثرها، فتحتهما تبحث عن طيف شقيقتها لعلّه يساعدها على الصمود في هذه اللحظات، وإنهاء رواية مأساتها:

ـ كاد والدي يتسبب في قتل أختي من شدة الضرب، ولم تسلم إلا بعد تدخل والدتي التي كانت تتلقى الضرب مكانها، في الأيام التي تلت تعرضت شقيقتي للضرب من طرف أخي ولم ينقذها من الموت بين يديه إلا والدتي التي كانت تعود لسبّها وشتمها والبكاء طيلة الوقت على

حظّها العاثر، بعدها تم سجن شقيقتي في غرفتها خوفا عليها من قتلها من طرف شقيقها.

عُرضت القضية على العدالة وانتشرت الفضيحة بين العائلة والجيران، تمت إدانة ذلك المجرم بتهمة السرقة وتبرئته من تهمة الاغتصاب لعدم وجود أدلة أنه أخذ شقيقتي غصبا عنها، ولأنها لم تكن قاصرا، اعتبر الأمر قد تم برضاها، رغم أنه لم يكن كذلك، لكن شقيقتي لم تستطع إثبات ذلك أمام ثبوت العلاقة بينهما وتنقلها معه برضاها، أتذكّر جيدا تلك الأيام التي مازالت محفورة في ذاكرتي، كانت شقيقتي تقف في ساحة المحكمة تنتظر دورها ترتعد خوفا ورهبة، بينما يقف والدي بعيدا ينقل نظراته بينها وبين أخي، ينظر إليها هي بغضب شديد، وإلى أخي بقلق أشد، ثم يعود للدوران حوله يراقبه ليمنعه من التهور

وارتكاب أي فعل قد يفكر في فعله، هناك كانت والدتي تقف منكسرة ذليلة، لا تجرأ على رفع عينيها إلى الأعلى، وكأنها تخشى أن تلتقي بعينيّ أي شخص هناك فيرى عارها وفضيحة ابنتها، وكنت أنا أراقب كل هذا من بعيد، لا أعرف أو لا أدرك وقتها إلى من يجب أن أنحاز، كنت متعاطفة معهم جميعا، وخائفة عليهم من ذلك الغضب والتوتر، لا أستوعب كل ما يحدث لكنني أدرك أننا في كرب شديد.

حُكم عليه بالحبس لمدة سنة، وأفرج عنه بعدها بمدة قصيرة بسبب العفو الرئاسي الذي شمله مع من تم العفو عنهم في عيد الاستقلال، خطب ابنة حيّنا وتمت الموافقة عليه كأنه لم يفعل شيئا لأنه رجل، والرجل لا يعيبه شيء، كان يأتي إلى حيّنا يتبختر فيه كأسد منتصر، أصبح والدي مكلّلا

بعار ابنته، ترك عمله وسجن نفسه في البيت، وكاد شقيقي يفقد عقله غضبا وخذلانا، في تلك الفترة عوملت شقيقتي كسجينة خطيرة منعت من الخروج أو الزيارات، أو حتى مشاهدة التلفاز، كان أخي يتفنن في ضربها وإذلالها وبعد أن أصبح له عذرٌ يمسكه عليها، لا أحد صار يتدخل، وكأنه اكتسب حق تعذيبها أكثر مما كان يفعل سابقا، وكأنه أثبت أنه كان محقا في معاملتها بدونية قبلا فقط لأنها أنثى.

ليلة عرس ذلك المجرم، تهجم عليه شقيقي وقتله بطعنات متتالية بسكين غرزه في جانبه الأيمن حتى الموت، ودخل السجن بتهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد، باع بعدها أبي بيتنا وانتقلنا إلى بيت جديد في حي آخر، بعد سنتين أصيب والدي بجلطة دماغية تسببت له في شلل كلي فقد

على إثرها قدرته على الكلام أو الحركة، عشنا بعدها سنوات من الألم والضياع، توفي أبي بعد ثلاث سنوات، وبقيت أنا ووالدتي نعيش في بيت واحد بيننا عتاب لا يخرج إلى العلن أبدا، لم تستطع والدتي استعادت قوتها والتزمت الصمت كطريقة حياة، الشيء الوحيد الذي تمسكت به أنا وقاتلت من أجله هو حلمي بأن أكمل دراستي، عرفت أنه لن يخرجني من حزني وضياعي إلا العلم، تخصصت في المحاماة وبعد سنوات اتصلت بالمحامي الذي كان مكلفا بقضية شقيقتي واطلعت على ملفها وعرفت كل التفاصيل التي أخبرتكم بها.

بعد إنهاء دراستي وبعد سنوات من العمل تمكنت من إنشاء جمعية للدفاع عن المرأة، هذه الجمعية هي ملجأ من لا ملجأ له، هي مأوى لكل فتاة

لفظها مجتمعها وتخلت عنها عائلتها، هي ملجأ للنساء اللواتي تتعرضن للضرب والعنف الجسدي، هي بيت يحتضن كل فتاة لم تجد الجرأة على التصريح بأنها اغتصبت، هي مكان تلتقي فيه المغتصبات ليشجعن بعضهن، يتلقين العلاج النفسي والدعم المعنوي الذي افتقدنه في محيطهن، هذه الجمعية هي قبل كل هذا مدرسة لتوعية الناس والعائلات أننا نحن كأفراد نتحمل كلنا مسؤولية ما يحدث لهؤلاء الفتيات، أنا لا أريد أن أعطي العذر لشقيقتي ولا لمثيلاتها، نعم شقيقتي أخطأت لأنها مشت في طريق الحرام، لأنها وثقت بمن لا يستحق الثقة، لكن علينا أن نسأل أنفسنا لماذا اختارت ذلك الطريق، أليس من واجب الأهل إعطاء الأمان لبناتهم حتى يُجِّدن اختيار الطريق السليم؟ عندما اغتصبت لم تستطع

التصريح بذلك، أتعلمون لماذا؟ لأنها كانت خائفة لأن عائلاتنا ترفض الوقوف مع بناتها خشية العار لماذا لجأت شقيقتي لرؤية هذا الرجل في مكان بعيد عن الأعين؟ لأن والدتي لم تعرف كيف تصادقها لتعلمها أن الحب الذي يكون في الظلام هو حب حرام، لأن والدي لم يعلمها أنها إنسان كامل مسؤول عن نفسه، بل تركها لتحكّمات شقيقي الذي كان يمنع عنها حتى الخروج مع صديقاتها، لأنها كانت تعاني من الضرب والتعنيف وانعدام الثقة فراحت تبحث عن الحب والتقدير في غير مكانهما، لأنها كانت ترغب بالهروب من بيت تحس فيه أنها سجينة وأنها تعامل كقاصر لا تبلغ سن الرشد أبدا فقط لأنها امرأة، لأنها لم تشعر يوما أنها محبوبة.

شقيقتي كانت تعاني من تحكمات أخي بسلطة أعطيت له من والدي، وصادقت عليها والدتي، بالرغم من أنه كان أصغر منها سنا، إلا أنه كان في عرف والديّ يملك حق الأمر والنهي بخصوص حياتها وتصرفاتها واختياراتها فقط لأن جنسه المكتوب عند الولادة كان (ذكر) بينما كانت شقيقتي (أنثى) وكأن ذلك وحده كان كافيا ليلغي عقل أختي، ويزكي عقل أخي، وسلمت أنا من أخي لأنني كنت صغيرة، لكن مصيري كان سيلحق بمصيرها وكنت سأصبح خادمة ثانية له، لولا ما حدث.

أتذكر عندما كان يأمرها أن تأتي له بكأس ماء وإذا رفضت يضربها على وجهها، ولا تجد من والدتي إلا تشجيعا لتصرفه، وتعزيزا لها على سوء أخلاقها، كأنها خلقت لتخدمه، بينما خلق هو

ليتدلل ويتحكم، كان هذا أبسط شيء يمكن أن أذكره مثالا لحياتها، لذلك خرجت تبحث عن التقدير في مكان آخر غير بيت عائلتها وتلقفها ذلك الوحش، الذي استغل ضعفها وأوصلها إلى الهلاك.

في بداية إنشاء الجمعية، هوجمنا كثيرا لأن البعض فهم أنني أشجع على الخروج عن ديننا وتقاليدنا، أو أنني أدعو للتحرر، لكن عكس ذلك أنا لا أدعو إلى التحرر، لقد حاربت طيلة هذه السنوات من أجل الوصول إلى مفهوم افتقدناه في مجتمعاتنا، وهو أن نربي بناتنا على الثقة فينا كأولياء حتى لا يبحثن على الثقة لدى الغرباء، أن نعزّز بداخلهن أن الفتاة مثل الذكر، لها نفس الحقوق ونفس الواجبات، بل أن ديننا دلّلها بأن سمّاها نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام (قارورة)

وقال فيها (رفقا بالقوارير) وسماهن (المؤنسات الغاليات) حين قال عليه أفضل الصلاة والسلام (لا تكرهوا البنات، فإنهن المُؤنِسَاتُ الغَالِيَات) وقال أيضا (من كان له ثلاثُ بنات أو ثلاث أخوات أو اثنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة) أليس هذا ديننا؟ أليس هذا إسلامنا، وهذه توصيات نبينا؟

لماذا أخطأت شقيقتي؟ لأنها لم تشعر يوما أنها وأخي في نفس المرتبة، دائما كان شقيقي المفضل والمبجل، كان حرا في فعل ما يريد، بينما لم يكن لها الحق حتى في إبداء رأيها في نقاش بينه وبين والدي، كانت دائما تشعر أنها في مرتبة دنيا، حتى كرهت كونها فتاة وتمنت لو أنها كانت ذكرا، لسنا هنا لنبرر الخطأ، إنما لنعمل على تفاديه قبل أن يحدث.

هذه الجمعية تأسست لنقول من خلالها صادقوا أولادكم وعاملوهم بالمساواة، ازرعوا بينهم الود والمحبة، علموا بناتكم الثقة في أنفسهن من خلال ثقتكم فيهن، اجعلوا بناتكم يعشن حياتهن في النور حتى لا يَمُتّن في الظلمة، امنحوهن حق التجربة، حق الاختيار، حق الخطأ، صححوا أخطاءهن البسيطة، وتجنبوا معهن الوقوع في الأخطاء الكبيرة، علموهن الصواب من الخطأ واتركوا لهن الفرصة في الأمل، في الحلم، في الحياة تحت أجنحتكم دون أن تقطعوا أجنحتهن، علموهن الطيران في فضاء الحياة دون خوف، دون تسرع ودون المضي إلى حتفهن وهن غافلات.

(حتى لا تحرق أجنحتي) هي صرخة كل فتاة، هي رسالة الجمعية التي أسست من أجلها، ومازلنا نناضل لنصل بقيمها إلى الجميع، في

النهاية شكرا لكل من ساهم معنا وشكرا لكل من ألهمنا، هذا التكريم يعني لنا الكثير)

تعالت أصوات التصفيق تشجيعا، تأثرا وانبهارا، نزلت هي بنفس الأناقة التي صعدت بها المنصة، رغم كل هذا الجهد ورغم كل ما وصلت إليه، مازالت تلك الغصّة بقلبها تخنقها وهي تتذكّر صورة شقيقتها ملقاةً على سريرها والدم ينزف من معصمها الذي قطعت عروقه، بعد أن يئست من فرصة ثانية في الحياة، لا أحد غفر لها زلتها ولا استطاعت هي أن تسامح نفسها، فاختارت الرحيل بتلك الطريقة الجبانة، فخسرت دنياها وآخرتها، شقيقتها زرع فيها أهلها الجبن والتخاذل، فكانت حياتها تخاذلا ونهايتها جُبنا، من يومها وهدفها هو أن تمنح تلك الفرصة لمثيلات أختها، حتى لا يخسرن ما بقي من حياتهن، أو

على الأقل حتى لا يخسرن آخرتهن، وقبل هذا وذاك أن توصل للعالم صرختها، لا تئدوا بناتكم وهنّ أحياء، قتل الفتاة لا يكون فقط بدفنها حية، بل أيضا بدفن روحها وحرق أجنحتها.

ابتسمت وابنتها الصغيرة ترتمي في أحضانها، عانقتها وهي تنظر إلى ذلك الرجل الذي يحملها بين ذراعيه، رجل أعاد لها الثقة في الحياة، بعد أن أثبت لها أن الرجولة أفعال، كان يعمل معها في الجمعية يناضل معها لإيصال رسالة الجمعية للناس (علموا بناتكم التحليق ولا تحرقوا أجنحتهن) كان متفهما واعيا، أدرك خوفها واحتواه، ومع مرور الوقت وثقت به وبنظرته للحياة، تقدم منها وهو يعرف تمام المعرفة شعورها المؤلم في هذه اللحظة وهي تتذكر نهاية شقيقتها، ويدرك أنها تغالب شعورا رهيبا بالحزن

ورغبة في الصراخ لم تغادرها من يوم وفاة شقيقتها، لينـاديها بلقبها الذي تعشقه:

مذ تزوجها وهو يناديها (مؤنستي الغالية) تتذكّر عندما وضعت ابنتها أنثى، نظرت إليه وقالت:

- (إني وضعتها أنثى)

فابتسم ابتسامة عريضة وهو يجيب:

- (الآن أصبح لديّ مؤنستان غاليتان، ووجبت ليا الجنة)

دمعت عيناها يومذاك ومدّت يدها إليه فاحتضن كفها وهو يسمعها تقول:

- (لقد عوّض الله حزني، بفرحتي بك)

فأجابها وقد اتسعت ابتسامته:

ـ (أما أنا فقد رزقني الله حبك، وحب هذه الصغيرة)

عادت من ذكرياتها عندما وضع قبلة على جبينها وهو يقول:

(أنا فخور بك مؤنستي الغالية)

دمعت عيناها رغما عنها وقد اختلط بداخلها الألم بالفرح، ابتسمت له وهي تحتضن ابنتها بذراعيها وتحتضن وجهه بنظراتها، قائلة:

ـ اشتقت لبيتنا

مدّ كفه تعتنق كفها يسحبها معه، ابتسم وهو يتفهم حاجتها في هذه الأثناء للشعور بالأمان بعيدا عن الناس، وسط عائلتها الصغيرة، هي وزوجها وابنتهما التي يسعيان لتعليمها الطيران بعيدا جدا

حيث يأخذها طموحها وأحلامها، مع زرع الرغبة بداخلها أنها مهما ابتعدت ستعود لحضنهما، لأن العائلة هي الأمان والثقة، هي الحب والاحتواء، هي السكن والسكينة.

تمت بحمد الله في

٢٠١٧/٠٣/٢٤

وعُدّلت في

١٩ و٢٠/٠٧/٢٠٢٠